

تعليم النساء

وترجمة عليّة بنت المهدي العباسي

تمهيد

كان الخلفاء والامراء وخاصة الناس في صدر الاسلام حتى القرن الخامس للهجرة من احرص الناس على تهذيب بناتهم وجواربهم وامهات اولادهم بتفقون الاموال ويجهدون النفوس السنين الطوال في تثقيف عقولهن وتقويم فطرتهن بالترويض والتخريج والتدريس والتحصيل على ايدي ثقات اهل العلم وائمة النخبة والرواة واشهر الحفظة والمجودين فما منهن بعد ان يتعمرسن على العفاف وحب الفضيلة من لا تحفظ القرآن العزيز وطرفاً من احكام الفقه والحديث وتتقمن علمي الانساب والتاريخ فضلاً عن آداب اللغة واخبار السلف من شعراء ومحدثين وغزاة وخطباء وكثبة وامراء فكان صدر كل فئاة من فتياتهم كنزاً من اسمى الكنوز يصيب منه سميرها ماشاء من ادب وحكمة ونكتة وفكاهة فينجذب لها فؤاده وتنزع اليها عواطفه وتل من نفسه محل الحرمه والتجلة والاعظام بمقدار ما يتوسمه فيها من مخايل الدراية والتعقل وآثار النجابة والاختيار

وما في ذلك من عجب بل العجب من التقيض وهيئات ان يخفى على امثال المنصور والمهدي والرزيد والمأمون ان الحسن المادي معها كان بارعاً رائعاً باهراً فناناً اذا لم يقتصر بالحسن المعنوي ويشفع بالظرف الادبي كانت صاحبه كالتمثال المنحوت والصورة المنقوشة بل اقل قيمة وابعد جاذبية منهما لان التمثال والصورة معدودان من الجمادات فلا يتوقع منهما الانسان رشاقة الحركة ولطف الاشارة وخفة الروح وحلاوة المعنى وسعة الدراية وحسن الرواية ولذلك يستحسنان ويروقان باعين الناظرين بمقدار ما اودع فيهما من دقة الصنعة وتناسب الرسم وحسن التكوين وتشاكل الالوان يبعزل عن تلك المزايا

اما الفتاة ذات الجسم المتحرك والنفس الحية واللسان الناطق والخلق السوي العتيقة ان تكون زوجاً مؤانسة وأماً مربية فتأبها النفس ويمافها الذوق وينصرف عنها القلب وان كانت جميلة وسيمة مادامت جامدة كالصنم بكما كالعجما لا تنفقه من احوال

الدنيا واسرار الحيوۃ وحقائق الكون وماهية ما يراد منها ومفروض عليها من سنن وواجب
الا ما كان مداره الطعام والمشرب وقوامه الملبس والمركب ومرجعه اللهو والتصف
ونتيجه الحب والبعال فاذا عرض لها امر يستوجب الانباء — وهو مما يحدث كل
يوم — قصرت في الاداء وتدنكات في الكلام وسعلت وتدنحت وتماجت ماثآت
ولم تقو على الافهام وان سئلت عن شيء اجابت بلا ادري او هذرت بجواب لم يكن من
لحمة السوال ولا من سده . فن كانت على هذا الطرز — وما عدوا مثالها عندنا
بقليل — احرى بها ان تكون عند اذكاء الرجال وارباب الدوق والفضل ساقطة المنزلة
سافلة القدر رخيصة القيمة تفضلها الشيوخ وتمتاز عنها الصور لان هذه تمتع الاعين
بجمالها ولا تضر النفوس اما تلك فانها تورث الكراهة وتني بالضرر وتلي المنازل خاصة
والجتماع القومي عامة بادواء من الهموم والموبقات تذهب بالامم الى اقصى الدرجات
اجل وليس من ينكر انك لتراها بادي الامر فتستحسنها لنقاء بشرتها وسواد حدقتها
واعتدال قوامها وغضاضة جسدھا وبضاخته وجدله والنفاذه ثم تسمع كلامها الدال على
جلها وغباوتها المؤذن بقصر اذراكها وسذاجة قلبها وظلام ذاكرتها قزدر بها وتستمتع بها
وينبذها قلبك نبذ النواة ويطرحها ذكرك طرح القذاة لانها لاتصلح للمواءمة
وتروج الهموم ولا ترجى للاستشارة وتسد يد الرأي ولا تنفع للامومة باتم معانيها
وللتربية وتدير المنازل بكل ما يراد من هذين الواجبين بحكم العقل والصواب ومن كان
هذا شأنها كانت سخطا على النوع الانساني ونيرا ثقيلا على عاتق الوجود وكل امة
تقلص ظل مجدها ونضب معين رخائها وزفت مواد قواها وتقطعت اسباب متعتها وعزتها
وهناها انما نساؤها على تلك الشاكلة ولقد صدق من قال « ان التي تهز السرير يمينها
تهز العالم يسراها »

فيا حبذا لو اقتدى كبرآؤنا واعاظمنا بمن درجوا قبلهم من اساطين الامة وسراة اعلامها
وصرفوا العناية الى تعليم اولئك اللواتي لا يسمين بحى اوانس الا اذا كن بالفعل نزهة
المجالس ولا يقال لمن عقائل مالم يكن بالحقيقة ارباب علم وادب وتهذيب وفضائل فان
الناس على دين ملوكهم والعاملة تقتدي بعبائنها فان احسن هو لاء الابتداء احسن
القوم الاقتداء والعكس بالعكس سنة الله في الخلق منذ حلت الحضارة محل البداوة وقام
التهذيب مقام الفطرة واصبح البشر درجات ومراتب وطبقات
نقول هذا توطئة وتبدأ لما نذكره الان من ترجمة ابنة خليفة واخت ثلاثة خلفاء وعمه

ثلاثة وهي (عليه بنت المهدي) ^(١) التي عني قومها بتعليمها وتأديبها وتنوير عقلها ونوسيع دائرة اختبارها حتى صارت آية الفضل ونابغة الادب ومثال العفاف وعنوان الرقة والبلاغة في فرض الشعر الصحيح الاجزاء الثنتين التراكيب الرشيق المعاني تنقن في اساليبه وتأخذ باطرافه اخذاً يبهز العقول ويفتن الالباب على كونها نشأة زهو وترق وغرسة صفو ونعيم . ومعلوم ان الملكة الشعرية لانتسحك في فتاة الى هذا الحد الا بعد الامعان والجد واحياء الليالي الطوال تبحراً سيف علوم العرب واتقاناً لفنون الادب وتعمقاً في دراسة اشعار النابغين المجيدين من غول الجاهلية والمخضرمين والمولدين والالما تهيأ لها ان تحذو حذوهم وتنسج على منوالهم وما تلك بالوحيدة بين انسابها في ذلك العصر الزاهر وما بعده بل يوجد كثيرات مثلاً حتى بين الجوارس القيان فضلاً عن حرائر الآنسات الحسان

ولدت عليّة حفيدة المنصور — ثاني خلفاء العباسيين — وبنت المهدي واخت موسى الهادي وابراهيم بن المهدي والرشيد هارون والعباسة واسماء وعمّة الامين والمأمون والمعتمد وصالح من سبعة ام ولد تدعى مكثونة جارية المروانية ^(٢) وذلك في سنة ١٦٠ هـ للهجرة وادركتها الوفاة نحو سنة ٢١٠ هـ وقد ناهزت الخمسين على اثر حمى اصابها وقد قال بعض المؤرخين في سبب وفاتها ان ابن اخيها المأمون ضمها اليه ماوياً وجعل يقبل رأسها والنقاب مسدول على وجهها فقصت بريقها لشدة ما نالها من حبس انفاسها ثم شرقت وسعلت فكان في ذلك حتفها

قال ابو اسحق القيروافي في كتابه «زهر الآداب» كانت عليّة لطيفة المعنى رقيقة الشعر حسنة مجاري الكلام رخيمة الصوت ولها الحان حسان احصاها ابو الفرج الاصبهاني في كتابه فاذا هي ثلاثة وسبعون وكلها حسن مختار

(١) هي ابنة المهدي واخت موسى الهادي وهرون الرشيد وابراهيم وعمّة الامين والمأمون والمعتمد وكل هؤلاء كانوا خلفاء

(٢) كانت مكثونة هذه احسن جارية بالمدينة وجهاً فاشترت للمهدي في حياة ابيه بمئة الف درهم فاسترلت على قلبه وغلبت على امره حتى كانت زوجته الخيزران تقول «ماملك المهدي امرأة اغلظ عليّ منها» وما زال خبر شرائها محجوباً عن ابيه المنصور حتى مات فولدت له عليّة هذه وعاشت الى ما بعد وفاة الرشيد

وقال النوفلي عنها انها من اوضح النساء وجهاً واعدهن قواماً واظرفهن كلاماً تقول الشعر المتين الجيد وتصوغ الالحان الحسنة وكان في جبينها اثر من شجرة اوفضل سعة ينقش من محاسنها فاتخذت العصائب المسكلة بالجواهر تستر ذلك العيب فكان ما حدثته خير ما ابتدعته النساء وقد وهم من قال ان اختها العباسة المبدعة لتلك العصائب فان ذلك لم يقله احد من ثقات المؤرخين

وقال ابراهيم بن اسماعيل الكاتب كانت عليه حسنة الدين لاتغني ولا تشرب الا اذا كانت معتزلة الصلوة فاذا طهرت اقبلت على الصلوة وتلاوة الاوراد ومطالعة الكتب — الا ان يدعوها الخليفة الى شيء فلا تقدر على خلافه — واطرب شيء لديها قول الشعر وكان احد احفاد الفضل بن الربيع وزير الرشيد يقول ما اجتمع في الاسلام اخ واخت احسن غناء من ابراهيم بن المهدي واخته عليه وكانت اخته تقدم عليه حدث يوماً ابو احمد بن الرشيد فقال : دخل في بعض الايام المأمون الى دار الحرم ودخلت معه فسمعت غناء اذهل عقلي فلم اقدر ان اتقدم ولا اتأخر وفطن المأمون لما بي فضحك ثم قال : هذه عممتك عليه تطارح عمك ابراهيم

مالي ارى الابصار بي جافيه لم تلتفت مني الى ناحيه
لاتنظر الناس الى المبتي وانما الناس مع العافيه
وقد جفاني ظالماً سيدي فأدعني منهله واهيه

والشعر والغناء لها ومن شعرها في اخيها الرشيد وقد دعت الى وليمة فلي « دعوتها تفديك اختك قد حبوت بنعمة اسنا نعد لها الزمان عديلا
الا اخلود وذاك قربك سيدي لازال قربك والبقاء طويلا
وحمدت ربي في اجابة دعوتي فرأيت حمدي عند ذاك قليلا

قال الراوي مامعناه : لما زارها الرشيد قال لها « غنيني يا اختي » فقالت « وحياتك لا عملن فيك شعراً ولا صوغن فيه لحناً ولا سمعناك به غناء » يطرِب الشكل ويرقص المقعد ويشجي المدنف » ثم نظمت من وقتها الثلاثة ابيات التي ذكرناها وغنت بها في لحن جديد من خفيف الرمل فاطرب الرشيد كثيراً واستعادها اياه مرات . ولما فيه ايضاً وقد دعا اختها العباسة الى زيارته ولم يدعها

مالي نسيت وقد نوذي باصحابي وكنت والذكر عندي رائح غادر
انا التي لا يطيق الدهر فرفقتكم فرق لي بالخي من طول إبعادي

ولما في ابن اخيها الامين وكانت لامات الرشيد جزعت عليه جزعاً شديداً وترك
 اللهو والفناء فلم يزل بها الامين حتى عاودتها وهي كارهة فقالت
 اطلت عاذلتي لومي وتفديدي وانت جاهلة شوقي وتسبيدي
 لا تشرب الراح بين السمعات وزر ظيماً غريراًني الخلد والجيد
 قد رخته شمول فهو منجدل يحكي بوجسته ماء العنايد
 قام الامين فانغي الناس كلهم فما فقير على حال بوجود
 ولما في «لبانة» ابنة اخيها علي بن المهدي وكانت من حسان زمانها الفاتنات
 وحدثني عن مجلس كت زينه رسول امين والنساء شهود
 فقلت له كره الحديث الذي مضى وذكرك من بين الحديث اريد
 وليس شعرها هذا بشيء في جانب غزلياتها فان لها من المقاطيع في «طل» و«رشا»
 وهما من ممالك الرشيد ما يكاد يسيل حلاوةً ويقطر ظرفاً ويشرب سلاسةً
 ومنها قولها في «رشا» وقد كت عنه بزيب

وجد الفؤاد بزيبا	وجداً شديداً متعبا
اصبحت من كلتي بها	صباً كثيراً منصبا
ولقد كبت عن اسمها	عمداً لكي لا تنصبا
وجعت زيب ستره	وكتمت امرأ عجبا
قالت وقد عز الوسا	ل ولم اجد لي مذهبا
والله لائلت المود	ة او تنال الكوكبا

فلما اشتهر انها تكفي عن «رشا» بزيب قالت وقد صغفت زيب بلفظة «ريب»

القلب مشتاق الى ريب	ياربما هذا من العيب
قد نيت قلبي فلم استطع	الا البكا باعالم الغيب
خبأت في شعري اسم الذي	ارته كالحب في الحبيب

وكان لزبيدة زوجة الرشيد جارية اسمها «طفيان» وشت بها مرة الى الرشيد
 فقالت عليه ثمجوها وفيه مع ادب الكتابة اشد انواع القم وهو من مبتكراتها المأثورة
 «لطفيان» خف مذ ثلاثين حجة جديد فلا يبلى ولا يمزق
 وكيف بلى خف هو الدهر كله على قدميها في الهواء معلق
 فما خرقت خفاً ولم تبل جورباً واما (ثياب فوقه) فتمزق

ولمات «رشا» او قتل شبيب في «طل» فقالت وقد صحت اسمه في البيت
الاول ثليجاً

ايا مسرة البستان طال تشوفي فهل لي الى «طل» لديك سبيل
مني يلتقي من ليس يهوى خروجه وليس لمن يهوى اليه دخول
عسى الله ان نرتاح من كربة لنا فيلقى اغتباطاً خلة و خليل
ولها فيه ايضاً وقد جعلت التصحيف في البيت الثالث

سلم عليّ ذاك الغزال الاغيد الحسن الدلال
سلم عليه وقل له ياغل الباب الرجال
خلت جسي ضاحياً وسكنت في «طل» الجمال
وبلغت مني غايةً لم ادر فيها ما احتيال
ثم صرحت به في ايات آخر تستعطفه بها وتتهمه بالصدود والاعراض وهي قولها
وهو من ارق التشبيب

يارب اني قد عرضت بهجرها فاليك اشكو ذاك يارباه
مولاة سوء تستهين بعدها نعم الغلام وبشت المولاه
طل ولكنني حرمت نعيمه ووصاله مالم يغثني الله
يارب ان كانت حياتي هكذا خيراً عليّ فما اريد حياه
والذي ادبها وخرجها وعلها فنون الشعر انما هو عمرو ابو حفص الشطرنجي وقد
نشأ هذا في دار ابينا المهدي مع اولاد مواليه ثم انقطع بعد موت المهدي الى غايه هذه
ولما زوجت بموي بن عيسى العباسي خرج معها الى دار زوجها ولما عادت الى القصر بموت
زوجها عاد معها وسمي شاعرهما وهو القائل عن لسانها لما غضب عليها الرشيد
لو كان يمنع حسن العقل صاحبه من ان يكون له ذنب الى احد
كانت عليه اربي الناس كلمم من ان تكافا بسوء آخر الابد
ما اعجب الشيء نرجوه ونعومه ندكت احب اني قدملات يدي
فكانت اياته هذه سبب رضى الرشيد عنها وإقباله عليها ومن احسن الغزل وارفه
قولها

يا عاذلي قد كت قبلك عاذلاً حتى ابتلت فصرت صبا ذاهلاً
الحب اول ما يكون بحانه فاذا تمكّن صار شغلاً شاعلاً

ارضى فيغضب قاتلي فتعجبوا برضى القاتل وليس يرضى القاتلا
وكان الرشيد قد استخلفها ان لالكلم « طلا » ولا تشب به في شعرها ولا تسميه
تخلقه له ثم هم يوماً بالدخول اليها واذا بها تقرأ في سورة البقرة وقد بلغت الآية « فان
لم يصيبها وابل فطل » واراوت ان تقول « فطل » فقالت « فالتدي نهى عنه امير
المؤمنين » فضحك وقال لها « ولا كل هذا »

هكذا روى القيرواني واما الاصبهاني فقال انه عند ما سمع الرشيد منها ذلك وهبها
الغلام بعد ان قبل رأسها وقال لها « لست امنعك بعد اليوم من شيء تريدته » وعندنا
ان الرواية الاولى ادنى الى الصحة على ما عهد من غير الرشيد وانفتح كيف لا
وهو الهاشمي الابي المزوف النفس ولقد روي عن لسان علة انها قالت « لاغفر
الله لي فاحشة ارتكبتها حفظ ولا اقول في شعري الا عبثاً » وهي هي التي تقول « ما حرم الله
شيئاً الا وقد جعل فيها حل منه عوضاً فباي شيء يحتج عاصيه » وبالجملة لو لم يكن حبها
للجمال مقصوراً على القيل والقال لما اكثر من شعرها من ذكرى الهجر والوحشة والشوق
فما نظمت بيتاً في التشبيب والغزل الا كاد ينطق بعفتها وادبها بغير لسان ويعرب عن
نزاهتها وتصونها كافصح ترجمان لان النار لا تنبعث عن فؤاد اخمدته الشهوات
واطفاً جذوة اللذات وما احلى قولها تشكو وتئنم وهو من مهبل الشعر

نام عذالي ولم اتم واشتني الواشون من سقمي

واذا ما قلت بي الم شك من اهواء في المي

ولو شئت ان تأني على جميع اخبارها ومنظوماتها وما ذكر الرواة من بدائعها ونكاتھا
لضاق بنا المقام وادرك القاري الملل فلم نبدأ من الاختصار على ما اوردا تبصرة
للرجال وتذكراً لمن اغفل العلم ولم يعتن بالفضل من ربات الحجال خاتمين
هذا الفصل ببيتين « لعية » لا يخلوان من الحكمة والعبرة لمن يكثر الزيارة واللييب تغنيه
الاشارة

اني كثرت عليه في زيارته فمل والشيء مملول اذا كثرا

وراني منه اني لا ازال اري في طرفه قصراً عني اذا انظرا

سليم عنخوري